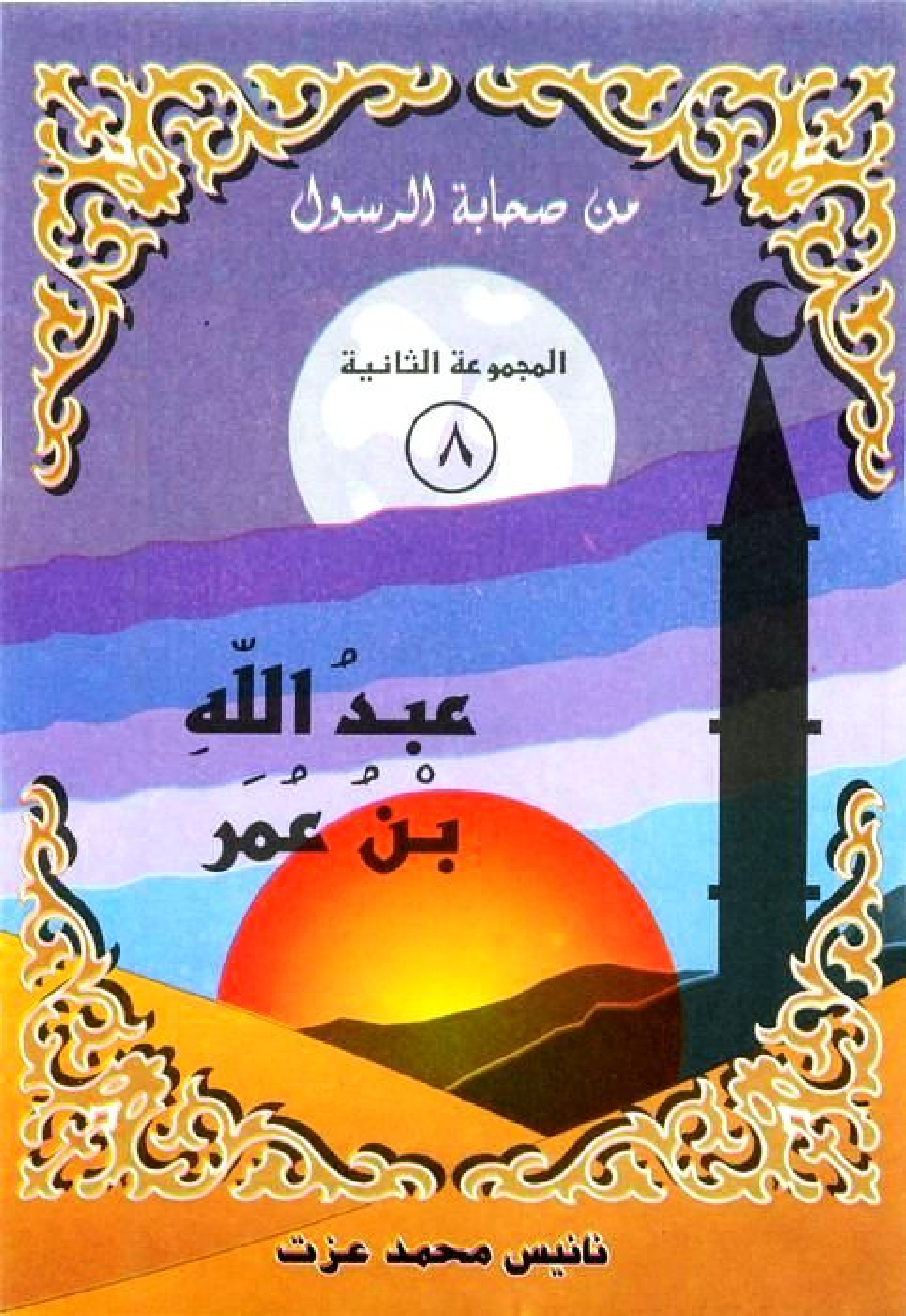

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٨
عبدُ اللّهِ بْنِ عمرَ
نانيس محمد عزت

عبد الله بن عمر

ضاعَ من أُسامةَ قلمُهُ الحبرُ الجديد ، وفي نفسِ اليومِ رأى مع صديقِهِ أيْمنَ قلمًا مثلَه ، فاتّهمهُ بسرقةِ قلمِه ، وطلبَ منه أن يردَّهُ إليه . فغضبَ أيمنُ لاتّهام صديقِهِ أُسامةَ له بالسّرقة ، ودافعَ عن نفسِه فقال : إنّ والدَه اشتراهُ له هديّة بمناسبةِ عيد ميلادِه .

وتشاجرَ الولدان ، وكلٌّ منهما يدّعي ملكيّةَ القلم ، وأخيرا اتّفقا على أن يكون صديقُهما إيهابُ حكمًا يقضي بينَهما بالحقّ . واستمعَ إيهابُ إلى حُجّةِ كلٍّ منَ الولدينِ أُسامةَ وأيمن ، ثمّ وعد بأن يُصدِرَ حُكمَه في الغد .

وفي البيتِ جلسَ إيهابُ يُفكّرُ في الأمرِ طويلا ، فسألهُ والدُه : ما الّذي يَشغلُ بالك يا إيهاب ؟ .

قالَ إيهاب : أنا مُحتارٌ يا أبي . فكــلٌ مـن صديقَيَّ أُسامةَ وأيمن ، مُصرٌّ على موقفِه ، ويدّعي أنّ قلم الحِبرِ له ، فلِمَنِ القَلَمُ يا تُرى ؟ .

قالَ والِدُه : لقد قَبلتَ يا وَلدي مُهمّةً صَعبَة . فهل أنتَ كُفؤٌ لها ؟ لقد رفضَ مثلَ هَذا التّكليف من هـو أكفأُ وأعقلُ منك ، فكيف تقبَلُه وأنت أقلُّ منـه بكثير ؟

ألا تعلمُ أنّ عبد اللَّهِ بنَ عُمَر ، رفضَ أن يَقضِيَ بين النّاسِ وقال : إنّ القُضاة ثلاثة : قـاضٍ يقضي بجهـلٍ فهو في النّار ، وقاضٍ يقضي بهـوى ، فهـو فـي النّـار أيْضا ، وقاضٍ يجتهدُ ويُصيبُ فهو كفافٌ لا وزرَ ولا أجر .

فبُهِتَ إيهابُ وقـال : ويـلٌ لي ! مـالي ولهـذا القَلـم اللّعين ؟ سـأعتذرُ لصديقَيَّ غـدا عـن هـذا التكليـف

المهلك . ولكن هل لكَ يا أَبى أن تحكى لى قصَة عبدِ اللَه بن عُمرَ بن الخطّاب ؟ إنَّ نسبهُ وحْده إلى أبيه ، يُبشِّرُ بقصَة رائعة .

قال والده : هذا حقٌ يا إيهاب ، فمنْ كان مُحمد ــ صلى اللَهُ عليهِ وسلَم ــ أُستاذه ، وعُمرُ بنُ الخطّاب ــ رَضى اللَهُ عنه ــ أباه ، لهُو شخصٌ عظيم ، يجبُ عليك أن تعرفَ سيرَته . فقد أسلمَ عبدُ اللَه بنُ عُمر بمكَة ، وهاجرَ إلى المدينة مع أبيه وهو فى الثّالثة عشْرة من عُمره ، فكان ابنا من أبناء الإسلام ، الّذين شبّوا وترعْرعوا على أخْلاق الإسلام وقيمهِ الحميدة . وقد أرادَ سيّدنا عُمرُ أن يُشاركَ ابنُهُ عبدُ اللَهِ فى غزوتىْ بدر وأُحُد ، ولكنَّ رسولَ اللَه ــ صلى اللَهُ عليه وسلَم ــ ردهُ خوفا عليه لصغر سنّه يومئذ ، ولكنّه أجازهُ يومَ الخندَق ، وكانَ حينذاكَ ابنَ خمسَ عشرة

سَنة . ولم يَدَعْ بعد ذلك أيّةَ غزوة ، إلاّ وشارك فيها بنفسه .

قال إيهابُ مُتعجّبا : شارك في الحرب وهو ابنُ خمس عشرة سنة فقط ! إنّ هذا عجيب ! .

قالَ والِدُه : لقد قُلتُ لك إنه ابنُ الإسْلام ، وقد كان يُحبُّ الرّسول ـ صلّى اللهُ عليه وسلّم ـ كلَّ الحُبِّ ، ويُحبُّ أن يتأسّى به ، ويفعلُ مثل ما يراهُ يفعل . فأيْنما صلّى الرّسولُ صلّى عبدُ الله ، وأيْنما دعا الرّسولُ دعا عبدُ الله ، وفي هذا الطّريق مشى الرّسول ، مشى فيه عبدُ الله ، وفي هذه البُقعة نزل الرّسولُ عن ناقته وصلّى ، نزل عبدُ الله وصلّى . حتّى إنّ السيّدة عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ قالتْ عنه : ما كان أحدٌ يتبعُ آثارَ النّبيّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلّم ـ في منازله ، كما كان يَتبعُهُ ابنُ عمر .

وعلى الرّغمِ من أنّ عبدَ اللّهِ بنَ عُمَر ، كانَ حَريصًا على اتّباعِ سُنّةِ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ والعَملِ بِها ، ومُحاكاتِهِ فى كلِّ ما يَفعَل : إلاّ أنّه لُم يُحدِّث عَنه قَطّ ، إلاّ إذا كانَ واثِقًا من كلِّ كَلِمةٍ يَقولُها . أو كلّ حَرفٍ يَنطِقُ به ، وكانَ يَحذَرُ كلَّ الحَذَر ، أن يُبدِّلَ حَرفًا مَكانَ حَرف ، أو أن يَضعَ كَلِمَةً مكانَ كَلِمَة . ولذلك كانَ شَديدَ الحَذَرِ فى الفُتْيا أيضا .

فإذا جاءَهُ أحدٌ يَستَفتيهِ فى أمرٍ ما ، وهو غَيرُ واثِقٍ من إجابَتِهِ عن هذا الأمر ، ردَّ عَليه بِقولِهِ دونَ إحْراجٍ أو خَجَل : لا عِلمَ لى بما تَسألُ عنه .

ضَحِكَ إيهابُ وقال : لم يَعدْ هُناكَ من يُقولُ مِثلَ هذا القَول ، فكلُّ إنْسانٍ يدَّعى العِلْم ، ويُدلى بَرأيهِ فيما يَعلَمُ وفيما لا يَعلَم .

قالَ والِدُه : وكذلكَ هُناك من يتحَمَّلُ مَسئولِيَّةَ القاضى ، وهو غيرُ كُفءٍ لها .

فأومأَ إيهابُ برأسِهِ خَجَلاً ، فقال والِدُه : أعتَقِدُ أنَّكَ عَلِمتَ الآنَ خَطأَك . فقد عرضَ سَيِّدُنا عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عنه – مَنصِبَ القاضى علَى عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ أكثر من مَرَّة ، فاعتَذرَ عن قَبولِهِ لئلاَ يُخطِىءَ أو يَحكُمَ بِهَوَى نَفسِه ، فيكونَ نِهايَتُه النَّارَ والعِياذُ باللَّه . واقْتَنعَ سيِّدُنا عُثمانُ برَأى عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَر ، ولكِنَّه طلبَ منه أن يَحتَفِظَ برَأيِهِ هَذا ، وألاَّ يُدْلِىَ به لأحَد ، فلا يَجدَ من يقبَلُ أن يَشغَلَ هذا المَنصِب .

وكما رفضَ عَبدُ اللَّهِ بنُ عَمَرَ منصِبَ القَضاء ، رفضَ كذَلِكَ مَنصِبَ الخِلافةِ أكثرَ من مَرَّة .

فعندما قُتل عثمانُ بنُ عفّان ، قالَ النّاسُ لعبدِ اللّه : أنتَ يا عبدَ اللّهِ سيّدُ النّاسِ وابنُ سيّدِ النّاس ، فاخرُج نُبايعْ لكَ النّاس .

فردَّ عليهم بقولـه : إنّى واللّـهِ لئن استطعت ، لا يُهْراقُ بسببى محجمٌ من دم .

قالوا له : لتخرُجَنَّ أو لنقْتُلَنّكَ على فِراشِك .

فأعادَ عليهم ما قالَه أوّلا ، فأطْمعوهُ ثمَّ خوّفوه فلم يُغيّر ذلك من رأْيه .

قال إيهاب : ألهذه الدّرجةِ كـان يَخشـى الخلافـة ، ويَخشى المسئوليّة ؟ .

قالَ والِدُه : إنّه لم يَخشَ المسئوليّة ، ولكنّه خـافَ أن يكـونَ سـببًا فـى قِيـامِ فتنَـةٍ ونـزاع بـينَ المُسـلمين ، فاشْترطَ لقبولـه الخِلافـة ، أن يَختـارَهُ كـلُّ المُسـلمينَ طائِعينَ مُختارين .

قَالَ إيهابُ : حقًا إنَّه تَقيٌّ ورِعٌ زاهد ، رفض الكَثيرَ من المَناصب البَرَّاقة . رفض القضاء ورفض الخلافَة ، على ما فيهما مِنْ نُفوذٍ وجاه وثَراء .

ابتسم والِدُه وقال : ثَراء !! كان المالُ آخرَ ما يهُمُّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَر ، فقد كان المالُ هَمًا وكَرْبا له .

قال إيهابُ : المالُ هَمٌّ وكَرْب ! كيفَ ذلك ؟

قالَ والِدُه : كانَ عبدُ اللّهِ بنُ عُمَر من ذَوى الدُّخول الكَبيرَة ، فقد كان تاجرا أمينا ، وكان له راتبٌ كَبيرٌ من بيتِ مال المُسلمين ، ولكنَه لم يدّخر لنَفسِه أيّة أموال ، فكانت أموالُهُ كلُّها حقًا للسّائلين والفُقراء والمَساكينِ والأيْتام .

يُحكَى أن جاءَهُ ذاتَ يَوم أربعةُ آلافِ درهم وقَطيفة . فلم يبتْ ليلَتهُ ذلك اليوم حتّى فرّق المالَ كلَه ، حتّى القَطيفَة تصدّقَ بها على الفُقراء ، ولم يُبق

فى بيتهِ ولا درهمٌ واحد . وفى صباح اليوم التالى كان عبدُ اللّه بنُ عمرَ بالسّوق ، يشترى بالدَّيْنِ علفا لدابّته .

تعجّب إيهابُ عجبا كثيرا ، فأكمل والده : ليس هذا فقط يا بُنىّ ، فقد كان الزُّهدُ من أبرزِ صفاتِ عبدِ اللّه بن عمر . فكان يتصدّقُ فى المجلس الواحد . بثلاثين ألف درهم أو يزيدُ عليها . وكان لا يأكلُ إلاّ ومعه على مائدتهِ فُقراءُ أو أيتام . وكان الفُقراءُ يتعمّدون أن يجلِسوا فى طريقِه ، حتّى يراهم فيدْعوهم إلى طعامه .

وتحكى زوجَته أنّه إذا لم يجد من يُشاركُهُ الطَّعام من الفُقراء أو المساكين أو الأيْتام ، أبى أن يأكل ، ونامَ بدون عشاء .

قال إيهاب : حقّا إنّه ابنُ سيّدنا عُمرَ بن الخطّاب .

قالَ والِدُه : وكانَ دائما ما يعيبُ على أبنائه دَعوتَهم الأغنياءَ دونَ الفُقَراءِ ، فيقولُ لهم :

- تدْعونَ الشّباعَ وتَدعونَ الجياعَ ؟

وجاءهُ ذاتَ يومٍ صَديقٌ له بدواءٍ ، هديّةً من العراق . وعند ما علم أنّ هذا الدّواءَ مُهضمٌ للطّعامِ ، ضَحِكَ وقال :

- يَهضِمُ الطّعامَ ؟ إنّى لم أشْبع من طعام قطّ ، منذُ أرْبعينَ عاما . ولم يكن الزُّهدُ فقط من أبرز سماته أو صِفاته ، فقد كانَ عابدا يُكثرُ منَ الصّلاةِ وتلاوةِ القُرآن ، ويذكُرُ ربّه كثيرا ، وكان لا يدعُ قيامَ اللّيل ، أو استغفارَ السّحَرِ كيفما كانت الظُّروف ، ولذلكَ قصّة .

تساءَلَ إيهاب : أيّةُ قِصّةٍ يا أبى ؟ احْكها لى .

قال والده : عندما كان عبدُ اللَّهِ شابًا لم يتزوّج بعد ، كان ينامُ في المَسجد ، وقد رأى في منامه رُؤيا يحكيها لنا فيقول :

- رأيتُ على عهدِ رسولِ الله - صلّى اللّهُ عليه وسلّم - كأنّ بيدى قِطعةً من إسْتبرق ، وكأنّنى لا أريدُ مكانا من الجنَّة ، إلاّ وطارَتْ بى إليه ، ورأيتُ كأنّ اثْنيْن أتيانى وأرادا أن يَذهبا بى إلى النّار ، فتلقّاهُما مَلَكٌ فقال :

- لا ترُع .

فخلّيا عنّى .

وحينَ قصّت أختُهُ السَّيّدةُ حفْصَة ، الرُّؤيا على رسولِ اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - قال :

- نعمَ العبدُ عبدُ اللّه ، لو كان يُصلّى من اللّيل فيكثِر .

ومنذ ذلك اليوم كان عبدُ اللهِ بـنُ عمَـر ، لا يـدع قيامَ اللَّيل ، ولا يتكاسلُ عنه ، سواء أكان في حلّ أو ترحال .

قالَ إيهاب : هَنيئا لمن كانَ في مثلِ أخْلاق عبدِ اللهِ ابنِ عمَر ، فهوَ مثالٌ يُحتـذى بـه فـى التُّقـى والـورَع والكرَمِ والجودِ والتّواضـعِ والاسْتقامَة والمُثابرَة علـى العِبادَة .

قالَ والده : وهذه الأخْلاقُ الحميدةُ التي ذكرْتها يا إيهاب ، كانت هيَ الّتي أبعدَتْهُ عن الفتنِ والنّزاعات ، بين أنْصار عليّ بن أبي طالب ومُعاوية بن أبي سُفيان .
فاعْتزلَ الخلافات ، واتّخذ موقفا مُحايدا ، وجعلَ شعارَه :

من قال : حيّ على الصّلاة أجبْته .

ومن قال : حيّ على الفلاح أجبْته .

ومن قال : حيَّ على قَتلِ أخيكَ المُسلِمِ وأخذِ ماله ، قلتُ لا .

وفي العامِ الثَالثِ والسَّبعينَ من الهجرة ، تُوفَي عبدُ اللَهِ بنُ عُمَر ، وهو ابنُ أربَعٍ وثمانينَ سنة ، وقد وصَفهُ مُعاصِروهُ فقالوا :

ـ ماتَ ابنُ عُمَر ، وهو في مِثل عُمَرَ في الفَضْل .

قالَ إيهاب : شكرا لك يا أبي على هذه القِصَةِ المُفيدَة ، المَليئَةِ بالعِبَرِ والعِظات .

* * *

وفي اليوم التَالي عادَ إيهابُ من المَدرَسةِ فرحان ، وقالَ : الحمدُ للَه يا أبي ، فقدْ نجَاني اللَهُ من تلك المُهمَةَ الشَاقَة التي كُلِفتُ بها ، فلقد وجد أُسامَةَ قَلمه ، و كانَ قد نَسيَه في البَيت .

سألَ والده : وهل اعْتذرَ لأيْمن ؟

قالَ إيهاب : نَعم ، اعْتذرَ له على مَرأى ومسمع من جميع أصْدِقائنا .

قالَ والِدُه : حَسنا فَعل . وأرْجو يا إيهابُ أن تَتعلَّم من موقف أُسامَة الخاطئ ، فلا تُسارع باتِّهام أَحد ، وأنتَ غيرُ مُتأكد تماما من اتِّهامِه . فقد قالَ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا جاءكُم فاسقٌ بنَبأ فتبيَّنوا أنْ تُصيبوا قوما بِجهالَة فتُصبحوا على ما فعلْتم نادمين ﴾ .